الفصل الثاني

في تعريف
الثقافة وآليات اشتغالها

obeikandl.com

obeikandl.com

في تعريف الثقافة

« الثقافة هي ببساطة الموطن الملائم للتطور الفردي الذي ينفرد به ويعتبر نمطا مميزا له»[١] .

مصطلح الثقافة من بين أكثر المصطلحات تعقيدا وغموضا ، وتعددا من حيث دلالته . ولذلك تعددت تعريفاته وتنوعت ، فأصبح يتسع لعدة مفاهيم .

ونؤكد منذ البداية أن هذا التعقيد في تحديد دلالة مصطلح الثقافة راجع بالأساس إلى الطبيعة المعقدة لظاهرة الثقافة باعتبارها ظاهرة إنسانية بل إنها أكثر الظواهر الإنسانية إنسانية أي التصاقا بالطبيعة الخاصة للإنسان ، إن لم نقل إنها هي التي تشكل خصوصية الإنسان .

ورغم التعقيد المشار إليه فإننا نلاحظ أن هذا المصطلح من أكثر المصطلحات استخداما سواء في الاستعمال اليومي العادي أو في الاستعمال العلمي ، حيث أصبح على هذا المستوى موضوعا لدراسات ومجالات علمية مختلفة منها علم الاجتماع والأنتروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم النفس المعرفي ، كما حظي باهتمام كبير من قبل التحليل النفسي الذي بلور هو الآخر نظرية في تشكل الثقافة ، مما يبين غنى المصطلح وطابعه الوظيفي وقدرته الإجرائية على تحليل وفهم كثير من الظواهر الاجتماعية .

ونحن في هذا الكتاب سنتبنى تعريفا إجرائيا وظيفيا ، أي تعريفا له قدرة

(١) ميشيل توماسيلليو، عن الثقافة والمعرفة البشرية، عالم المعرفة عدد ٣٢٨ يونيو ٢٠٠٦.

تفسيرية وتحليلية لما يعرفه واقعنا الثقافي من مظاهر الخلل ، ويمكننا من أن نتلمس المدخل إلى إصلاح نظام الثقافة باعتباره أحد أهم المداخل في النهوض المجتمعي وفي نهوض الأمة عموما .

وهو التعريف الذي وضعه مالك بن نبي حين عرفها بأنها: « مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه »[١] .

ويورد ميشيل توامسيلليو تعريفا قريبا من تعريف مالك بن نبي بعد سرد عدد كبير من نتائج البحث العلمي في كتابه «**الثقافة والمعرفة البشرية**» المنشور بسلسلة عالم المعرفة عدد ٣٢٨ يونيو ٢٠٠٦ حيث يقول نقلا عن جوفين: «الثقافة هي ببساطة الموطن الملائم للتطور الفردي الذي بنفرد به ويعتبر نمطا مميزا له» .

من خلال كتابه «**مشكلة الثقافة**» يقترح مالك بن نبي أيضا النظر إلى الثقافة من زاويتين: الزاوية الأولى زاوية تاريخية تكوينية أي من حيث محاولة فهم ماهيتها وطريقة تكونها . فمن هذه الزاوية يمكن اعتبار الثقافة ظاهرة تاريخية اجتماعية أي هي مجموع الاستعدادات والسلوكات المشتركة والصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي تلقاها الفرد كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه . فهي المحيط الذي تتشكل فيه طباع الفرد وشخصيته .

أما الزاوية الثانية فهي النظر إليها ليس باعتبارها دراسة لواقع اجتماعي بل

(١) مالك بن نبي مشكلة الثقافة.

باعتبارها أيضا منهجا للتحقيق [١] أي برنامجا تربويا لإعادة بناء الإنسان وإعادة صياغة أسلوبه في الحياة .

البعد الثالث اللازم استحضاره في المشكلة الثقافية ، وحسب مالك بن نبي دائما هو أنها مشكلة اجتماعية « لاشعورية » لا تخص طبقة دون غيرها ، فهي تشمل الأمي كما تشمل المتعلم ، كما أنها تطبع استجابات الأفراد وسلوكاتهم إزاء مشكلات الحياة رغم تباين مستوياتهم العلمية والاجتماعية واختلاف انتماءاتهم الإيديولوجية .

تبعا لذلك ينبغي التمييز بين الثقافة والمعرفة ، فالمعرفة إن كانت من مشمولات ومكونات الثقافة وأحد عوامل صياغتها إلا أنها ليست العامل الوحيد أو الحاسم .

المعرفة تتصل بالمستوى الواعي من الشخصية ، بينما الثقافة تتصل ـ إضافة إلى ذلك ـ بالبعد العميق من الشخصية . إنها تتمثل في مجموعة من الاستعدادات والاتجاهات ، غير الواعية في كثير من الأحيان ، التي تتحكم في تعاملنا مع المعارف والأفكار وتوظيفها في هذا الاتجاه أو ذاك ، فهي تتكون من مركبات وترسبات فكرية تنحدر إلينا من التاريخ البعيد ، أو من تأثيرات الوسط العائلي والاجتماعي والواقع المحلي والعالمي ، فتمارس واسطة بيننا وبين ظواهر الواقع وتكيف تمثلاتنا لها ولمختلف المعارف الإنسانية .

وإذا كانت المعرفة تشتغل على صعيد الوعي والفكر فإن الثقافة تشتغل في الغالب على مستوى اللاوعي أو العقل الباطن . وكلما ارتكست المجتمعات في

(١) نفس المرجع، ص ٦٤.

obeikandl.com

هاوية التخلف كلما ارتبكت العلاقة بين المعرفة والثقافة ، والعكس صحيح أيضا ـ أي بمقدار ارتباك تلك العلاقة تزداد المجتمعات انحدارا في مدارك التخلف .

الثقافة تمثل ـ حسب مالك بن نبي ـ الأسلوب المشترك أو استجابتنا المشتركة لمختلف المواقف التي تعرض لنا . وهي الاستجابات التي تختلف من مجتمع إلى آخر أو من سياق اجتماعي إلى آخر . ويشبه مالك بن نبي وظيفة الثقافة بوظيفة الدم فهي تغذي المجتمع بجميع فئاته ولذلك فهي تتدخل في شؤون الفرد وفي بناء المجتمع وتعالج مشكلة القيادة كما تعالج مشكلة الجماهير .

وتكون العلاقة بين طرفي المعادلة علاقة إيجابية بين طرفي المعادلة حينما تكون المعرفة موجِّهة للثقافة ومساهِمة في صياغتها ، أي حينما تكون المعرفة بما فيها من علوم وأفكار متقدمة على الثقافة بما فيها من سلوكات واستجابات جماعية تشكلت عبر التاريخ ، وتكون سلبية حين يكون العكس .

وفي هذا الصدد يضرب مالك بن نبي مقارنة بين أسلوب استجابة الطبيب العربي والراعي العربي وبين الطبيب الإنجليزي والراعي الإنجليزي ، إذ عكس ما هو مفترض نجد أن الطبيب العربي أقرب في استجابته للمواقف الاجتماعية إلى الراعي العربي أكثر منه للطبيب الإنجليزي والعكس صحيح .

ونفس الشيء بالنسبة للماركسي العربي والعجوز العربية فخلفيتهما الثقافية المشتركة تجعلهما يتصرفان بنفس الطريقة كما يقول خالص جلبي: «العجوز العربية تنتظر المهدي المنتظر أي تنتظر عاملا من خارج الفعل الإنساني ،

والماركسي العربي ينتظر دخول التراكتور أي تغيير أدوات الإنتاج لتغيير أسلوب الإنتاج ونمط الإنتاج ومن ثم تغيير المجتمع ببناه الفوقية والسفلية» .

وهكذا يلاحظ أن درجة التقدم في «المعرفة الأكاديمية» أو لنقل في «الثقافة» بالمعنى الشائع ، لا يغير من القضية شيئا ويجعل شخصين من مستويين معرفيين متباينين ينتميان إلى نفس الثقافة ويعبران عن سلوك ثقافي واحد .

المشكلة لا تكمن في المعرفة ومناهجها ، وإنما بالفاعلية الاجتماعية للمعرفة والأفكار: يقول مالك بن نبي « فمن الملاحظ أن طالب الطب المسلم الذي يذهب لتلقي علومه في إحدى العواصم الأوربية ، يحصل على الدبلوم نفسه الذي يحصل عليه زميله الإنجليزي مثلا ، بل إنه كثيرا ما يتفوق عليه إذا ما كان أكثر استعدادا وذكاء ، لكنه لا يحصل غالبا على فاعليته ، أعني طريقة سلوكه وتصرفه أمام مشكلات الحياة الاجتماعية .

وليس لنا سوى وجه واحد لتفسير هذا الاختلال ، هو أن الفاعلية الاجتماعية لا علاقة لها بمنهج الكلية ، وإنما تعتمد بصفة عامة على أسلوب مجتمع معين وعلى السلوك الذي ينتهجه الفرد كما ينسجم مع هذا الأسلوب ، وعليه إذا ما مضينا لمواجهة مشكلة الثقافة ، وجدنا أنفسنا نواجه ضمنا مشكلة أسلوب الحياة ومشكلة السلوك الذي ينسجم معها » [١] .

والمتأمل في الأمثلة السابقة يلحظ أن عالم الأفكار والمعرفة الذي تمثله اليوم النخبة المتعلمة ، ما فتئ يتأثر بالمواقف والمسبقات الجماعية وبالرواسب التاريخية ، أي أنه لم ينجح بعد في إعادة صياغة الثقافة ، بينما كانت دعوات

(١) مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ص ٤٢.

الأنبياء دعوات تحررية تحريرية ، لأنها لم تأت بمعارف وقيم نظرية فحسب ، وإنما جاءت لتغيير الأنظمة الثقافية السابقة والدعوة إلى الانسلاخ من سلبيات الوعي الجماعي الموروث كما ورد في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [سبأ:٤٦] .

من خلال المعطيات السابقة يمكن أن نخلص إلى الخصائص التالية لظاهرة الثقافة:

ـ إنها مجال رمزي بامتياز ومن ثم فهي تعبر عن التاريخ وعن الهوية وعن الميراث الاجتماعي للإنسان ، وهو ما يجعل منها ظاهرة معقدة ومركبة تستعصي على التغيير .

ـ إنها ظاهرة اجتماعية تتميز بخصائص الظاهرة الاجتماعية أي أنها أولا: خارجية عن الفرد فهي سابقة له في الوجود ، وهي تشكل شخصيته الجماعية ، وثانيا: تتميز بالقهر والضغط الاجتماعيين ، بحيث يصعب على الفرد الخروج عليها (الخروج على العادات والتقاليد والعقاب الاجتماعي الذي يتعرض له الفرد بسبب ذلك) .

ـ الثقافة تتميز في جوانب كبيرة منها بأنها تتغلغل في الجانب العميق من الشخصية أي أنها تتسم بالطابع غير الواعي ، ولذلك عرفها البعض بأنها هي ما يبقى بعد أن يتم نسيان كل شيء .

تبعا لذلك فالثقافة تكيف استجابات الناس الذين يعيشون داخل المجتمع: إنها تشكل الجانب المشترك من الشخصية ، أو الشخصية الجماعية في الشخصية الفردية .

ونرى أنه بالنسبة للمستوى الأول ينبغي القيام بعمل حفري للكشف عن مختلف الترسبات الثقافية ـ الاجتماعية والتاريخية التي أسهمت في تشكيل النظام العام للثقافة المغربية ، وهو ما سنخصص له بحثا من بحوث هذا الكتاب ـ مع الاعتراف أن عملنا هذا سيبقى خطاطة أولية تحتاج إلى عمل علمي أكاديمي متخصص ، وأنه أكبر من أن يحيط به مقال مختصر أو مطول .

كما ينبغي القيام بعمل تحليلي في الوعي واللاوعي الجمعي وفي مختلف مظاهر السلوك الاجتماعي المشترك من أجل رصد مختلف معوقات النهوض التي تجد نفسها في نظام الثقافة كما تتجلى وكما تعبر عن نفسها من خلال استجاباتنا المشتركة بغض النظر عن مواقعنا الاجتماعية وانتماءاتنا السياسية . .

*****

obeikandl.com

حول آليات اشتغال الثقافة

(١)
مفهوم الثورة الثقافية

«اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط» [١] .

الثورة الثقافية خرافة . ونقصد بذلك أن التعويل على السلطة السياسية أو القوة العسكرية لاقتلاع ثقافة معينة أو تغيير قيم أو استنبات قيم جديدة مهمة مستحيلة ، وأنه إذا كان هناك شيء يتأبى على مفهوم الثورة ويستعصي عليها فهو مفهوم الثقافة . ويؤكد الواقع التاريخي أسطورة الثورة الثقافية التي نظر لها ومارسها «ماو تسي تونغ» حين أكد أن الفأس هو أيضا سلاح إلى جانب القلم في حالة حاجتنا إلى تسوية أطلال ثقافة الإقطاع والاستعمار التي هي مصدر جميع صنوف الضعف السياسي والاجتماعي ، وإلا سيكون من المستحيل بناء ثقافة جديدة حسب ماوتسي تونغ . فمع حقيقة الاستقلالية النسبية للثقافة عن التحولات الاقتصادية والسياسية والتحولات الفوقية وطابعها المعقد من المشروع أن نتساءل:هل وجدت هناك ثورة ثقافية في التاريخ؟ وهل وجدت ثورة سياسية كاملة لا تواجه مقاومة ثقافية؟ وهل يستحق مفهوم الثورة تبعا لذلك أن يكون من بين مصطلحات اللغة؟ وأن لا يكون الثائر الحقيقي هو الثقافة على سلطة السياسة وليس السلطة السياسية على سلطة الثقافة كما سعى إلى ذلك «ماوتسي تونغ» في ثورته الثقافية؟

الثورة بمفهومها السياسي المعروف إذن ، أي تحقيق قطيعة نهائية مع وضع

(١) جزء من حديث نبوي.

سياسي سابق ومع شبكة المصالح السابقة يكاد يكون شبه مستحيل تماما ، والتاريخ السياسي لا يعترف بمفهوم القطيعة النهائية ، بل يعترف فقط بمبدأ التراكم المحكوم بمبدأ التقدم تارة ومبدأ التقهقر والتراجع أحيانا أخرى . ومعنى ذلك أنه ليست هناك سوى «ثورة» نسبية ، وأن كل «ثورة» تتبعها ثورة مضادة .

ولئن كانت الثورة المضادة تفسر في بعض جوانبها بانتفاضة أصحاب المصالح والامتيازات القديمة من أجل إرجاع الأوضاع إلى ما كانت عليه ، فإن من أهم ما يفسر «الثورة» المضادة هو المقاومة الثقافية للتغيير ، ولذلك أكدنا أنه إذا جاز أن نتحدث عن ثائر فهو الثقافة: الثائر الحقيقي على كل الانقلابات الفوقية والتغييرات السلطوية .

وهذا يعني أن أي إصلاح سياسي لا يمكن أن يكتب له النجاح ما لم يتأسس ويصاحب بإصلاح ثقافي تحتي عميق ومتواصل . قد يحدث أن يقع تغيير سياسي في طبيعة الدولة وفي القيم السياسية التي تقوم عليها فوقيا ، فتسعى مثلا إلى إقرار نظم وقوانين جديدة وأساليب جديدة قائمة على العدل والشورى والديمقراطية والتعاقد والتداول ، وتسعى إلى العمل على إقامة مشروع مجتمعي قائم على إطلاق المبادرة وتحرير المرأة . . . . وغير ذلك من مقومات المشروع المجتمعي التحريري للإنسان ، لكنها قد تصطدم بنوعين من المقاومة .

الأول: مقاومة أصحاب النفوذ والمصالح الذين جاء المشروع السياسي الجديد لتجريدهم من امتيازاتهم ومصالحهم ، وهو ما يطلق عليه في الأدبيات

السياسية بمراكز مقاومة التغيير .

الثاني: المقاومة الثقافية التي يكون منطلقها المجتمع ذاته والناشئة عن سبب رئيسي وهو كون القيم الثقافية لا تساير في الغالب وبنفس السرعة والوتيرة التغيرات والتحولات السياسية الفوقية ، أو التحولات الفكرية التي تطرأ على مستوى القيادات الفكرية والزعامات السياسية . وهذا هو الذي يفسر المفارقات التي وجدناها في عدة تجارب تاريخية بين التغيرات التي يعرفها نظام المعرفة وبين نظام الثقافة من جهة ، والانتكاسات التي تعرفها كثير من المجتمعات بين عصر الرسالة الإصلاحية وجيلها الأول والعصور التي تليها . لكن ذلك لا يعني استحالة التغيير الثقافي بقدر ما يعني ألاّ نعول على فرضه بالسلطة السياسية أو القانونية الفوقية .

وللانتقال من التجريد النظري إلى تشخيص هذا التصور من خلال أمثلة ووقائع تاريخية نشير إلى الأمثلة التالية:

أولا : القرآن الكريم انتقد في أكثر من موقع قضية المقاومة الثقافية للتغيير من خلال التشنيع على المشركين تمسكهم بما كان عليه الآباء والأجداد ، وكيف يعطل التحجر المذكور حركة العقل كما يتضح من خلال الآيات القرآنية التي تنتقد التقليد والتبعية ومنها مثلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ .

[البقرة]

﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم

مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف][1] .

ثانيا : السنة النبوية حذرت من ثورة القيم الثقافية السابقة التي جاء الإسلام من أجل تغييرها ودعت إلى اليقظة والحذر المتواصل من انتفاضة الثقافات والقيم السابقة على الإسلام . والأمثلة في ذلك كثيرة نذكر منها فقط ما يلي:

ـ ففي الحديث عن أبي واقد الليثي قال: **خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ، ونحن حدثاء عهد بكفر ، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم ، يقال لها: ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر ، إنها السنن ، قلتم -والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ لتركبن سنن من قبلكم**[2] .

ـ ولما اختصم مهاجري مع أنصاري فقال المهاجري: يا للمهاجرين ، وقال الأنصاري: يا للأنصار ، قال النبي ﷺ : «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وغضب لذلك غضبا شديدا**»[3] في إشارة إلى حقيقة إمكانية انتفاضة القيم الثقافية السابقة على المنظومة الثقافية الجديدة .

ثالثا : التجربة التاريخية الأولى تبين كيف آلت الكلمة الأخيرة لانتفاضة نظام الثقافة السابق على القيم التقدمية التي جاء بها الإسلام ونكتفي هنا بقضيتين: قضية المرأة حيث جاء الإسلام بقيم تقدمية كانت على مسافة كبيرة

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه الترمذي وصححه.
(٣) رواه البخاري.

مما كان عليه الوضع الثقافي والاجتماعي كما وصف ذلك عمر رضي الله عنه حين قال: (كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئا ، فلما جاء الإسلام، وذكرهن الله ، رأينا لهن بذلك علينا حقاً) [١] .

وهكذا ففي الوقت الذي جاء القرآن يسجل مثلا من فوق سبع سماوات مجادلة امرأة لرسول الله ، ودعوته النساء للمشاركة وأن يقلن قولا معروفا ، انتهى الأمر ببعض الفقهاء إلى جعل صوت المرأة عورة وأنه من الخير لها أن لا ترى الرجال وأن لا يراها الرجال ، في حين أن أمرها بالحجاب هو في الحقيقة أمر لها بالمشاركة الفاعلة وإلا فما الغاية من الحجاب إن لم يكن إذنا بالخروج والتفاعل؟

القضية الثانية : في المجال السياسي ، حيث كان التحول من الرشد في تدبير السياسة القائم على الشورى والزهد في الدنيا إلى نظام التغلب نتيجة انتفاضة ثقافية وليس نتيجة انقلاب سياسي . فالتحول وقع في القاعدة قبل أن يقع في القمة ، وثقافة الشوكة والغلبة انطلقت من القاعدة قبل أن تصل القمة ، وذلك يعني أن المجتمع لم يستطع مسايرة النموذج الراشد ، وسرعان ما رجع إلى النموذج الكسروي والقيصري الذي أوجد الفقه الإسلامي له تسويغا فقهيا من خلال تسويغ التغلب أساسا للمشروعية السياسية ، باعتباره أهون من الفتنة وسفك الدماء وضمان لاستقرار سياسي يمكن من مواصلة الرسالة الحضارية للإسلام رغم الثلمة التي حدثت في نظام الحكم ، في حين ذهب ابن خلدون إلى إيجاد تفسير اجتماعي تاريخي من خلال أن شرعية الحكم لا تقوم فقط على الاختيار الشوري الحر بل تقوم أساسا على الاعتبار الثقافي أي حاجة كل سلطة إلى منعة اجتماعية ، وأن الذي كان بإمكانه

(١) رواه البخاري.

توفير تلك المنعة هو العصبية القرشية وإلى هذا المعنى وجه حديث: «الأئمة من قريش»[١].

ويستفاد من ذلك أنه على المعنيين بتدبير التحولات المؤسساتيه والقانونية والسياسية في مجتمع ما أن يعنوا كبير العناية بتدبير التحولات الثقافية وبمخاطر الانتفاضات الثقافية التي من شأنها إعاقة الإصلاحات مهما كانت تقدمية .

*****

(١) رواه أحمد في المسند.

obeikandl.com

(٢)
المانعة الثقافية ومقاومة التغيير

« أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم »[١]

يقصد بالمانعة الثقافية استعصاء ثقافة ما على التغيير الفوقي أو الاختراق بفعل ما تتمتع به من انغراس في الوعي واللاوعي وفي السلوك والوجدان . والمانعة الثقافية قد تكون ظاهرة إيجابية حينما يتعلق الأمر بمقاومة ظواهر الغزو والاختراق الثقافي ، لكنها تكون ظاهرة سلبية حينما يتعلق الأمر بمقاومة محاولات الإصلاح والتجديد في المجتمعات ، وحين يتعلق الأمر بالانتكاسات ومختلف أشكال «الردة» التي هي كذلك وقائع تاريخية مشهورة وحقائق اجتماعية مقررة .

وسبق أن بينا كيف انتبه الإسلام إلى خطورة عودة الموروث أو الدعوة بـ«دعوى الجاهلية» كما ورد في بعض الأحاديث ، وكيف قرر وجود جدلية بين «الشر» و«الخير» في مسيرة التاريخ .

وهناك شواهد عدة تدل على أن أغلب «الثورات» الكبرى التي عرفها التاريخ قد تعرضت لانتكاسات وشهدت ثورات مضادة . وذلك معناه ببساطة أنه ليس هناك « ثورة مطلقة» تحدث قطيعة بين مرحلة تاريخية وأخرى ، وأنه إذا جاز أن نتحدث عن «ثورة» فإن في ذلك كثيرا من التجاوز ، وأن ذلك يعني فقط أنه إذا كان قد تحقق قدر كبير من الإصلاح والتمكين للقيم التي جاءت بها «ثورة» ما خلال حقبة تاريخية أو جيل من الأجيال ، فإنه

(١) جزء من حديث شريف.

يبقى هناك احتمال كبير لانتكاسة وانتفاضة للقيم والأوضاع والقوى السابقة عليها .

هذه الحقيقة التاريخية تكذب كل الفلسفات والنظريات التي آمنت بأن التاريخ يسير في خط تصاعدي تقدمي كما هو الشأن عند «أوجست كونت» أو «هيغل» أو « ماركس» وانتهاء بـ«فوكوياما» الذي ابتدع أسطورة «نهاية التاريخ» ، والتي بمقتضاها اعتبر أن الليبرالية هي أبدع ما ابتدع الإنسان ، وغاية ما يمكن أن تتفتق عنه العبقرية الإنسانية من إنجاز .

وتؤكد تلك الحقيقة أيضا أن عناصر « مقاومة التغيير» في المجتمعات الإنسانية أعمق من أن تؤثر فيها «ثورات» تذهب بأشخاص وتأتي بآخرين أو تطيح بأنظمة سياسية وتجيء بأخرى ، أو تغير بنى اقتصادية أو علاقات إنتاجية وتؤسس أخرى ، فالثورة البلشفية التي انطلقت من فكرة ديكتاتورية البروليتاريا ، وهيمنة الحزب الشيوعي على المجتمع والثقافة ، لم تستطع أن تزيح ما اعتبرته إيديولوجيات وثقافات مختلفة . كما أنها لم تستطع على الأخص أن تقمع الشعور الديني ، أو تستأصل الإيمان بالغيب في الاتحاد السوفياتي البائد .

بناء على ما سبق يمكن أن نقول ، إن عمليات المقاومة للتبعية والاختراق وجب أن تراهن على تعزيز العوامل الإيجابية في الممانعة الثقافية ، وأن عمليات التجديد والإصلاح وجب أن تراهن على تجاوز العوامل السلبية في الممانعة الثقافية .

وللأسف الشديد ، فإن المتأمل في الفكر النهضوي والفكر العربي

والإسلامي المعاصرين ، يلاحظ أن تجديد الثقافة وتجاوز مختلف أشكال الممانعة السلبية لم يحظ ـ في غمرة الانشغال بمواجهة الاستعمار ـ بما يلزم من الاهتمام ، وأنه باسم تحديث « الثقافة والمجتمع» فإن البعض ساهم في تحطيم عوامل الممانعة الإيجابية مسهلين ومساهمين من حيث يشعرون أو لا يشعرون في عمليات الاختراق والإلحاق .

*****

obeikandl.com

(٣)
من الثورة الثقافية إلى ثورة الثقافة

تنطبق نظرية «مكر الثقافة » المشار إليها أيضا على الثقافة في العالم العربي الإسلامي ، حيث تطور الثقافة يتم عبر آليات متعددة ليس منها على الإطلاق الإلغاء أو التجاوز بمعناه المطلق ، بل قد يكون أحيانا التجاوز الذي يفيد التجاوز مع الاحتفاظ ، وأحيانا أخرى نشوء علاقة أفقية تبادلية لا تكون فيها هيمنة لأحد الطرفين ، وأحيانا ثالثة غلبة الثقافة المهيمن عليها على الثقافة المهيمِنة .

وتقدم تجربة دخول التتار الإسلام نموذجا حيا عن هذه الغلبة الثقافية الصاعدة ، ونموذجا حيا على أن المغلوب ليس دوما مفطورا على تقليد وتبعية الغالب كما يقول ابن خلدون ، إذ تفيد المعطيات التاريخية أن الإسلام قد قام بحركة غزو ثقافي مضادة للغزو التتري المغولي ، وأنه بقدر الكارثة التي حلت ببغداد وبالمسلمين عامة على يد الطاغية هولاكو ، فإن هناك جانبا من الصورة يتجلى في كون ذلك الغزو كان مقدمة لانتشار الإسلام في شرق وجنوب آسيا . لقد كان تأثير الإسلام عظيما حتى في قلوب الغزاة نتيجة اختلاطهم بالمسلمين واطلاعهم على النور الذي أنزل إليهم ، وخاصة على أخلاقهم وسلوكهم .

جاء في دراسة الدكتور محمود السيد « التتار والمغول » [١]:

اعتنق « كورجوز » حاكم فارس من قبل « أجتاي خان » الديانة الإسلامية

(١) الدكتور محمود السيد « التتار والمغول » من ص١٥٠ إلى ص ١٥٤ بتصرف ، مؤسسة شباب الجامعة ١٩٩٨.

في أواخر عهده ، بعد اعتناق بركة خان القبيلة الذهبية (٦٥٤هـ - ٦٦٦هـ) للعقيدة الإسلامية في أول نصر حقيقي للإسلام ، خاصة بعد أن تبعه السواد الأعظم من رعيته ، حتى إن كل رجال جيوشه كانوا مسلمين وهم مغول ، وتبع ذلك توثيق الروابط السياسية بين « بركة خان » و« بيبرس » سلطان مصر ، وتحالف كلاهما ضد أسرة « هولاكو » في فارس .

ولما انتشر المغول في بلاد الصين ، واعتنق بعض ملوكهم دين الإسلام في القرن السابع الهجري ، وجعلوا مدينة « كاشغر » غرب الصين عاصمة دولتهم الجديدة ، أشير على ملك الصين المغولي« بركة خان » زعيم القبيلة الذهبية بمهادنة الخليفة المستعصم العباسي ٦٤٠هـ .

ولما انتشر العنصر المغولي المسلم في الجبهة الغربية والشمالية من البلاد أخذ الصينيون الأصليون يتربصون بالمسلمين الدوائر ، لا سيما عندما أعلن الأمير «يعقوب خان » ٦٧٩هـ استقلاله بمملكة « كاشغر» في الشمال الغربي .

ولما أراد دعم الوحدة الإسلامية بايع السلطان العثماني بالخلافة ، وانضوى تحت لوائه ، ليكون له سندا ، وطلب من دار الخلافة خبراء في الفنون الحربية ، وسائر الصناعات الهندسية . كما توطدت العلاقات بين « بركة خان » زعيم القبيلة الذهبية والظاهر «بيبرس» ، بل وتحالف الفريقان ضد عدوهما المشترك الذي يمثل «هولاكو» في فارس ، ولم يدخر وسعا ، فأسرع في البحث عن حلفاء يناصرونه على هؤلاء المسلمين ، فتحالف مع زعماء الصليبيين في بلاد الشام ، وقد شجعت «هولاكو» زوجته المسيحية على هذا الخط لتصرفه عن الديانة الإسلامية .

وعلى الرغم من كل هذه الجهود ، وأن نفوذ المسلمين بدأ يقوى على مر الزمن ، دخل كثيرون من الحكام المغول في الإسلام . فعندما تولى « غازان محمود » أحد إيلخانات الحكم في فارس (٦٩٤ – ٧٠٣هـ) اعتنق الدين الإسلامي ، وطالب رعاياه بالدخول في الإسلام ، وأعلن أن دين الإسلام هو الدين الرسمي للدولة . ومنذ ذلك الحين بدأ الإسلام ينتشر انتشارا سريعا في دولة إيلخانات المغول في فارس .

واستقر المغول في البلاد الإسلامية ، وتشبعوا بالروح الإسلامية تدريجيا ، وأسسوا أسرة إيلخانات المغول في فارس ، وتطبعوا بالطابع الإسلامي مع ارتباطهم بالشعب المغولي في شرق آسيا ، مما أدى إلى سهولة تبادل المعلومات في مختلف نواحي الحياة بين شرق آسيا وغربها . قوي نفوذ المسلمين بعد اعتناق «تكودار أحمد» الديانة الإسلامية ٦٨٠هـ ، وهو أحد أبناء هولاكو ، وعمل على جذب أتباعه إلى الإسلام ، فقدم العطايا والمنح لكل من يعتنق الإسلام ، ومنحهم ألقاب الشرف في دولته .

ويضيف الدكتور محمود السيد في تفصيل وقائع دخول التتار والمغول إلى الإسلام:

«في سنة ٦٩٣هـ تولى محمود قازان عرش المغول ، ثم في سنة ٦٩٤هـ دخل في الإسلام ، يقول الذهبي عن هذه السنة: « وفيها دخل ملك التتار غازان ابن أرغون في الإسلام ، وتلفظ بالشهادتين بإشارة نائبه «نوروز» ، ونثر الذهب واللؤلؤ على رأسه ، وكان يوما مشهودا ، ثم لقنه « نوروز » شيئا من القرآن ، ودخل رمضان فصامه ، وفشا الإسلام في التتار » وقد أعلن غازان الإسلام دينا رسميا للدولة المغولية في إيران ، كما غير المغول زيهم فلبسوا العمامة ، كما

أمر بتدمير الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ، والأصنام البوذية ، كما أمر أهل الذمة بأن يتميزوا بلباس خاص بهم . وهكذا اختلف إسلام قازان عن إسلام السلطان أحمد بأن إسلامه لم يكن فرديا وإنما حوله إلى دين رسمي للدولة » .

لكن هذا الاختراق الثقافي القاعدي من الإسلام للغازين من المغول والتتار لم يكن كاملا ، إذ حافظت الثقافة الغازية على مقاومتها للثقافة الإسلامية ، وهو ما يفسر تشكيك بعض علماء الإسلام في إسلام التتار كما هو الشأن عند ابن تيمية بسبب أن أكثر هم لم يعرفوا الإسلام حق معرفته ، ولم يقفوا عند حدوده وشرعه ، ولم يمنعهم الدين الجديد الذي انتسبوا إليه من اقتحام بلاد المسلمين ، وتكرار اعتداءاتهم عليها بعد عصر « جنكيز خان » الطاغية ، ولم تختلف سيرتهم كثيرا عن سيرة أسلافهم من المجرمين .

ويعني ذلك أن عمليات التحول الثقافي عمليات معقدة ولا تحدث بقرارات فوقية ، وأن الشعوب تحتاج إلى وقت كبير كي تنجز انتقالات ثقافية ، وتحتاج إلى جهود تربوية وتعليمية وعمليات مثاقفة من خلال القدوة والسلوك والتقبل التلقائي للقيم الثقافية الجديدة . ولذلك يؤكد الدكتور محمود السيد في الكتاب المشار إليه على أنه لا ينبغي تضخيم دور المغول في نشر الإسلام إذ ينبغي الانتباه إلى « أن دين الإسلام كان قد انتشر في آسيا منذ القرون الهجرية الأولى على يد القائد المسلم قتيبة بن مسلم الباهلي سنة (٩٤هـ) ، حيث فتح « كاشغر » عاصمة الصين آنذاك ، ثم توقفت الفتوحات العسكرية لتبدأ الفتوحات المعرفية بنشر الإسلام في جميع بقاع آسيا عن طريق العلم والدعوة والأخلاق الحميدة » .

*****